" شوفوني يا ناس "

كنت قبل عدّة أيام بزيارة اجتماعية لقرية من القرى في ضواحي مدينة القدس. أعرف هذه القرية منذ ثلاثين سنة، حيث كانت قرية صغيرة، بيوتها بسيطة متواضعة.

كم كانت المفاجأة كبيرة عندما دخلت القرية. رأيت بيوتًا كبيرة، فارهة وضخمة، رأيت "فيلات" على أحدث الطراز وأجمل التّصاميم. "فيلات" تمتد على أمتارٍ كثيرة، وتُحيط بها الحدائق من كل الجهات، إلى جانب بنايات متعددة الطّبقات، مبنيّة من أحجار القدس البيضاء منها والحمراء.

قد يرى بعض الناس في هذه الظاهرة علامة من علامات الرخاء الاقتصاديّ في البلاد مع أننا نعرف جيدًا أنّ هذا الرخاء الاقتصاديّ هو رخاء خارجي، أي لأشخاص من خارج القرية.

لكن ليس هذا الموضوع الذي أرغب بالتحدث عنه. أنا بالحقيقة أتساءل كيف من الممكن العيش في هذه البيوت الكبيرة الضّخمة مع حالة التفكك الأُسريّ والعائلي وقلّة الضّيوف والزّوار في بيوتنا.

هنا أجد نفسي أقف أمام اعتراف شجاع. يعود في الزمن إلى خمسة وعشرين عامًا، حيث أذكر أنّ بيتي كان لا يخلو من الزّوار والضّيوف والأصدقاء، أمّا اليوم فكثيرًا ما أجد نفسي، بعد أن كبر أولادي، جالسًا أنا وزوجتي لوحدنا مع أننا لا نملك بيتًا كبيرًا. نجلس وحدنا بانتظار عودة أولادنا بساعة متأخرة، بينما يدخل كل منهم إلى غرفته مُنشغلًا بأموره الشّخصية.

يذهب تفكيري بعيدًا إلى عدّة سنوات إلى الأمام حيث سيغادر الأبناء البيت الضّخم تاركين الأهل وحدهم، يعيشون بين أربعة جدران. السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا نبني هذه البيوت من الأساس ونحن نعرف أنه لا يوجد لدينا غير ثلاثة أولاد كأقصى حد؟

الجواب بنظري أننا نبني لأنفسنا سجنًا كبيرًا نقضي به شيخوختنا ونخلّد، من خلال جدرانه، شعورنا بالوحدة. في نظري، لا يوجد في هذه الدنيا أناس يسكنون في بيت حجمه 200 متر مربع، حيث أنّ نصف البيت عبارة عن صالون وغرفة طعام وذلك لكي يقول الضّيوف أنّ بيتهم جميل وفاخر، ولكن أين هم هؤلاء الضّيوف؟!

لماذا نحن في مجتمعنا نحب الأشياء الضّخمة، البيوت الضّخمة، السّيارات الضّخمة، هل نحاول بواسطة ذلك أن نعوّض أنفسنا عن سنوات طويلة

عشناها بفقر وحرمان؟ هل نحاول أن نثبت لأنفسنا ولغيرنا أننا نعيش برفاهية ورخاء؟

انظروا مرة أُخرى إلى أعراسنا...

إنّ أقل عرس عندنا لا يقلّ عن 600 مدعو. طبعًا هذه الأعراس مكلفة جدًا. تبدأ من التجهيزات البسيطة مثل المصوّر والمغنّي. طبعًا قصة المغنّي قصة بحد ذاته حيث إننا نتنافس على سعر المغنّي، مَن مِنّا أحضر مُغنّيًا أغلى وتقاضى نقودًا أكثر. لا ينظر النّاس إلى صوت المغنّي، فالجميع يرقص. وكما قال لي عمي" عدنان " عندما تزوجت وأردت إحضار مغنٍ مكلف حينها قال لي:" يا عمي الناس دقّلهم على تنكة مخلل برقصوا عليها" آه كم صدق عمي عدنان! طبعًا موضوع الأكل هو موضوع آخر. إذا كانت الوجبة غنيّة قال الناس: "والله حرام. كثير، مش أحسن لو أعطوه لدور الأيتام؟!" وعندما يكون الأكل قليلًا لعن الناس العريس وأبو العريس واتهموه بالبخل و"الكحتتة". طبعًا لا ننسى فستان العروس وتوابعه من مكياج وأدوات زينة وهدايا للمدعوين.

طبعًا إذا تحدث أحد الحكماء والعقلاء منتقداً، هوجم هجومًا عنيفًا خاصةً من النساء ويتم اتهامه بالبخل على أولاده وأنه "نكد" ولا يحب الفرح. للأسف نحن شعب نقيم الأعراس والأفراح وندعو مئات المدعوين وندفع راتب أربع سنوات

لكي يقول النّاس أنّ عرسنا كان جميلًا وفاخرًا ويليق بالمقام. ويستمر العريس بتسديد ديونه ويعيش بفقر وضنك من العيش مما يؤدي إلى الطّلاق المحتوم حيث إنّ المثل يقول: "إذا دخل الفقر من الباب خرج الحب من الشّبّاك".

كذلك لا ننسى السّيارات الفخمة الفاخرة. اعتاد آباؤنا وأجدادنا أن يقولوا: "على قد لحافك مد اجريك". لم يبق لحاف يتّسع لأقدامنا فقد تفوّقنا على كل شعوب العالم. ممّا يحيّرني ويثير استغرابي، كميّة السيارات الفخمة الموجودة في قُرانا ومُدننا العربية. يا ترى من أين؟ وكيف؟ مُعظمنا لم ينشأ بعائلة غنيّة ميسورة، كلّنا أشخاص بسيطون نعيش على رواتبنا الشهريّة ولم نرث أموالًا من أهالينا. كلمة السّر هي كلمة عبرية سرعان ما أصبحت جزءً من قاموسنا اللّغوي العربي، "ميمون" يعني قرض، يعني بنك وفوائد عالية، يعني ربا وديون. أخبرني صديق لي لديه معرضٌ للسّيارات أنّ معظم الأشخاص الذين يشترون السّيارات بهذه الطّريقة، يضطّرون إلى إعادة سياراتهم بعد أربعة أشهر فقط من شرائها. لا أعرف لماذا تحتاج ربّة بيت سيارة "جيب" أو "أربعة على أربعة"؟! لا أفكّر إلّا بشيء واحد هو إغاظة "سِلفتها" أو جارتها.

إننا نعيش خطأً وبخلاف طبقاتنا وقدراتنا الماديّة بدءاً من الشّخص الذي يشتري "آيفون" وراتبه لا يتعدّى خمسة آلاف شيكل، وحتّى سيدة البيت التي تشتكي من غلاء أسعار الخضار والفواكه والأكل وتقوم برمي نصفه كلّ يوم...

نحن لسنا فقراء إنّما نحن نحب المظاهر والمناظر.

دعوني أختم حديثي بطرفة علّها تخفف حدّة كلامي ونقدي:

يُحكى أنّ رجلًا من أغنياء المدينة، كانت عنده ابنه وحيدة طلب يدها شاب من عِلّيّة القوم. فقال الرجل: هذا الشّاب لا بد أنّه طامع في مالي. فرفض أن يزوجه ابنته. وبعد أن ألحّ أهل الخير في طلبها قال: "هذا الشّاب "ابن دلال" لا يعرف قيمة التّعب، أنا أريد أن أحتاط لثروتي من الضّياع، لذا اشترط عليه أن يتعاطى مهنة الشحاذة سنة كاملة ليذوق طعم العازة ويعرف قيمة المال.

وقبل الشّاب شرط الرّجل مُكرهًا وبدأ يقف على الأبواب وتعوّد أن يمد يده باستمرار أمام عابري السبيل، سائلًا عطاءهم وطالبًا لهم العمر الطّويل.

ومرّت الأيام وانقضت السّنة ولم يحضر الشّاب لإتمام مهام الزواج. وراح والد الفتاة يبحث عنه حتى وجده جالسًا على الرّصيف، وأمامه صحن فخّار عتيق يستعطي فيه ويُنادي: " يا مُحسنين، لله يا مُحسنين، حسنة لوجه الله".

فقال له: ألم تفطن أن السّنة انتهت... ونحن بانتظارك..."؟

أجاب الشّاب بجدّ ورزانة: اعلم يا عم أنني تعلّمت علومًا كثيرة وحصلت على شهادات عليا كثيرة، لكن درسًا واحدًا كان ينقصني فالنّاس يتعبون في تحصيل المال، ثم يحزنون عند انفاقه، وقد تعلّمت في هذه السّنة ألّا أتعب ولا أحزن، لأننا نحن معشر "الشحّادين"، نقبض بلا حساب ونرفع أدعية لا تُستجاب، لذلك قررت أن أتابع مهنتي هذه مدى الحياة، وإذا كانت ابنتك لا تزال ترغب في أن تصير زوجة لي، فقل لها أن تحمل صحنها وتتبعني!

دمتم بكل الخير

أ.أيمن جبارة